أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين*

أ. د. يحي بوعزيز

بدأت المؤسسات الدينية تظهر بالجزائر وكل بلدان المغرب الأخرى منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) عندما وصل إليها الإسلام على أيدي الفاتحين المسلمين الأوائل وكان المسجد هو النواة الأولى لهذه المؤسسات ثم ظهرت بالتدريج مؤسسات أخرى شاركته في رسالته وخففت عنه بعض الأعباء وهي المدارس العلمية والكتاتيب القرآنية والزوايا والمعمرات.

المساجد

وظيفتها الأساسية قيام المسلمين بأداء الصلوات فيها وتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفروض الدينية وبعض العلوم الاسلامية، وتعريف شؤون الناس وعلاج مشاكلهم وقضاياهم اليومية وهي ثلاث أنواع :

---

*. أعددت هذا الموضوع وألقيته في المؤتمر الواحد والعشرين للمستشرقين الألمان بمدينة برلين الغربية في الفترة من 24 فبراير الى19 مارس 1980 م، ونشر في مجلة الثقافة عدد 63، (مايو، يونيو 1981م).

1. نوع مما أسسه الحكام كالخلفاء والأمراء والملوك والولاة كجزء من عملهم الوظيفي لخدمة المجتمعات الإسلامية وتيسير سبل أداء شعائرهم الدينية، ولكسب عطف الرعية ولربما للشهرة كذلك ومن ضمنها بالجزائر : جامع ابن مروان وصالح باي بعنابة وجامع الباي بقسنطينة والجامع الكبير بالجزائر العاصمةوجامع الباشا بوهران والجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بندرومة.

2. ونوع مما أسسه كبار الأثرياء للتقرب إلى الله واستمالة بعض الفئات الاجتماعية وشيوخ الدين ولكسب الشهرة كذلك وأعدادا من هذا النوع كثيرة بالجزائر ومن ضمنها : جامع سيدي الأخضر بقسنطينة وسيدي رمضان وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة وسيدي الصوفي ببجاية وسيدي الهواري وسيدي الحلوي وأبي مدين بتلمسان.

3. ونوع ثالث مما أسسته الهيئات والجمعيات الخيرية الدينية والاجتماعية كتكملة لعمل الولاة الكبار والأثرياء وشيوخ الدين وأعدادها كثيرة جدا ولاتحصى بالجزائر وكل بلدان المغرب الأخرى بالحواضر والقرى وكذلك الحال في معظم بلدان العامل الإسلامي.

المدارس العلمية

وظيفتها تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية وظهرت بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واتصل المسلمون بحضارات وشعوب أخرى غير إسلامية واحتكوا بها ودعت الحاجة إلى اقتباس علومها ومعارفها والاستفادة

منها و لم يكن باستطاعة المسجد وحده أن يقوم بهذا الدور فاهتم المسلمون بإنشاء مثل هذه المدارس وتعميمهاومن ضمنها المدرسة النظامية ببغداد والظاهرية بدمشق والبرقوقية والغورية بمصر والحفصية والسلمانية والتوفيقية والمرادية والشماعية في تونس والكتانية بقسنطينة والمروانية بعنابة والتاشيفينية ببجاية والإمامية واليعقوبية بتلمسان.

وجرت العادة أن تؤسس هذه المدارس بجوار المساجد، نظرا للصلة الوثيقة بين الدين والعلم ولكن هذا ليس شرطا غير أن كل مدرسة لا بد أن يؤسس داخلها بيت (مسجد) للصلاة.

وتنوعت العلوم والمعارف التي تدرس بها إلى ثلاث أصناف :

أولا : العلوم الدينية : مثل تحفيظ القرآن وشرحه وتفسير الحديث وتعليم الفقه والتوحيد والمنطق والأصول.

ثانيا : علوم اللغة والأدب : كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والقوافي وقواعد الإنشاء باعتبارها أداة ووسيلة لإتقان العلوم الدينية.

ثالثا : العلوم الطبيعية والتجريبية : كالفلك والحساب والطب والصيدلية العشبية وغيرها.

وتوجد بالجزائر مجموعة من هذه المدارس ما يزال البعض منها قائما حتى اليوم ولو كهياكل مثل المدرسة ابن مروان بعنابة والكتانية وسيدي الأخضر بقسنطينة والتاشفينية ببجاية وأبناء الإمام وسيدي بومدين بتلمسان وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمةوكانت هناك مدارس بمازونة وملیانة وندرومة وغيرها.

الكتاتيب القرآنية

وظيفتها تحفيظ القرآن للأطفال وترتيله لهم وقد دعت الحاجة إلى تأسيسها من أجل تجنيب الساجد أوساخ الأطفال وضوضائهم والاحتفاظ بنقاوتها وطهارتها ووقارها ليجد فيها المصلون والمتعبدون جو الخشوع المطلوب في العبادة.

وهذه الكتاتيب أحيانا بيوت منفردة وأحيانا مجمعات من البيوت مختلفة الأحجام والأشكال والأغلبية من تأسيس حفظة القرآن الكريم للارتزاق والحصول على لقمة العيش وقد بدأت هذه الكتاتيب القرآنية تظهر منذ صدر الإسلام بالمدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انتشرت في سائر البلدان الإسلامية ومنها الجزائر وبلدان المغرب التي تطورت فيها تطورا كبيرا وواسعا في العصر الحديث وتكثفت في عهد الاستعمار الفرنسي خلال القرنين 19 و20 كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير والتمسيح والفرنسة وحماية للشخصية العربية الإسلامية للجزائر ولمقاومة سياسة التجهيل التي كانت تتبعها الإدارة الاستعمارية في البلاد وهي موجودة في كل الحواضر والقرى بصورة مكثفة كما ذكرنا ويطلق عليها في الجزائر الوسطى اسم " المسيد" بسكون الميم وكسر السين الممدود ويتولى حفاظ القرآن الكريم الذي يطلق عليها اسم" الطُلبة" بضم الضاء المشددة وسكون اللام في بعض الجهات و" الفقهاء" في بعض الجهات الأخرى و" والمشايخ" في غيرها.

ويزدحم الأطفال حولهم ذكورا وإناثا من مختلف الأعمار ويجلسون على الأرض فوق الحصائر والسجاجيد في شكل دوائر نصفية فيملون عليهم أجزاء من القرآن الكريم يكتبونها على ألواح خشبية مطلية بطين الصلصال الغراء بأقلام من القصب وصمغ مصنوع من الصوف المحروق وبعد كتابته وتصحيحه في الفترة الصباحية يتمرن الأطفال على قراءته قراءة أولية ثم يتلونه في المساء ويقرؤونه بأصوات جهُورية حتى يحفظوه ثم يمحوه في صباح اليوم الموالي ويكتبوا غيره وهكذا بصفة دورية ودائمة حتى يأتوا على كل شكل سُور وأحزاب القرآن الكريم.

وفي العادة، يتم تعليم القرآن في الصباح من الخامسة والسادسة حتى العاشرة وفي المساء من الساعة الثالثة عشر إلى السابعة والثامنة عشر مع راحة في الوسط قبل صلاة العصر غير أنه في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر جرت العادة في المدن على ممارسة تحفيظ القرآن وتعليمه في الأوقات التي تكون فيها المدارس الرسمية مغلقة بين الخامسة والسابعة والنصف صباحا والثانية عشرة والثالثة عشر والنصف في منتصف النهار والسابعة عشرة والتاسعة عشر وما بعدها مساء وذلك حتى يتمكن الأطفال المحظوظون من الالتحاق بهذه المدارس الرسمية الفرنسية من جهة ثم إن الإدارة الاستعمارية نفسها ضايقت في ذلك حتى لا تبدو هذه الكتاتيب القرآنية مزاحمة للمدارس الفرنسية رغم أن أبوابها مغلقة وموصدة في وجه معظم الأطفال والأهالي الجزائريين.

وإلى جانب تحفيظ القرآن يتلقى الأطفال في بعض هذه الكتاتيب الكبيرة قواعد تلاوة القرآن وتجويده وترتيله على الروايات السبع والعشر ويحفظون بعض متون العلوم الفقهية والشرعية واللغوية مثل : ابن عاشر والشاطبية وألفية ابن مالك.

ويقبل الجزائريون جميعا على إرسال أطفالهم إلى هذه الكتاتيب بدون تراخ حتى الذين لا يطبقون التعاليم الدينية لأن القرآن الكريم يمثل الرمز والعنوان لإسلام الجميع والكل يحرصون على أن يبدوا ويظهروا مسلمين حتى ولو كان البعض لا يطبق مبادئه وأركانه ولا يعمل بها.

ومعظم هذه الكتاتيب القرآنية في الجزائر بسيطة المظهر والمبنى قليلة الإمكانيات المادية وأصحابها "الطُلبة"و"المشايخ" من الطبقة الفقيرة جدا والكادحة يتصدون لتعليم القرآن في هذه الكتاتيب للحصول على لقمة العيش أساسا ويستعملون العصي والأسواط لتأديب الأطفال الشرسين والبلهاء والمنحرفين والأغلبية منهم يحفظون القرآن دون فهمه ويلقونه كذلك للأطفال خاصة في الأرياف ومن ضمن هذه الكتاتيب والمسيدات في حي القصبة وحده بالجزائر العاصمة :

1. مسيد برقيصة
2. مسيد سيدي بوقدور وضريحه.
3. مسيد ابن علي وضريحه.
4. مسيد الحمامات.

5. مسيد حوانيت سيدي عبد الله.

6. مسيد الدالية واندثر حاليا

7. مسيد جامع الزاوية وهي زاوية سيدي محمد الشريف الزهار.

8. مسيد جامع سفير.

ورغم المظهر المزري أحيانا لهذه الكتاتيب القرآنية وفقر أصحابها ورغم الأساليب العتيقة المختلفة التي كانت تطبق وتتبع داخلها فإن دورها هام جدا في المحافظة على القرآن الكريم وعلى الطابع الإسلامي للجزائر شكلا ومحتوى وفي مقاومة وإفشال سياسة التنصير والفرنسة.

الزوايا

عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل المختلفة الأشكال والأحجام تحتوي على بيوت للصلاة كمساجد وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم العربية الإسلامية وأخرى لسكنى الطلبة وطهي الطعام وتخزين المواد الغذائية والعلف وإيواء الحيوانات التي تستعمل في أعمال الزاوية.

ومؤسسو هذه الزوايا رجال دين متصوفون متزهدون بدأت حركتهم تظهر في المشرق الإسلامي منذ القرن 2هـ على يد رابعة العدوية ثم أبي يزيد طيفور البسطامي الفارسي وأبي القاسم الجنيد العراقي في القرن 3هـ، 9م والحلاج في القرن 4هـ وأبي حامد الغزالي في القرن 5هـ ومحيي الدين بن العربي الأندلسي في القرن 7هـ وهكذا من المشرق الإسلامي انتقل الزهد

والتصوف إلى بلاد المغرب وانتشر بها أواخر العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث وكثرث الزوايا وانتشرت بشكل واسع ومكثف في القرن السابع عشر وما بعده خاصة خلال الزحف الاستعماري الفرنسي في القرنين19م ومطلع القرن العشرين.

وهي نوعان :

أ. **نوع خلواتي** : يدعى شيوخها المعرفة بأسرار دينية غيبية خاصة والقدرة على تلقينها لأتباعهم الذي يلقبونهم " المريدين" و"الإخوان" و"الفقراء" حسب اختلاف الجهات والمناطق يفرضون عليهم أذكارا معينة يتلونها في خلوات خاصة معزولة ومظلمة لمدة محدودة حتى يفتح الله عليهم ثم يخرجونهم ليصبحوا مريدين حقيقيين وبعد ذلك يفرضون عليهم أذكارا عامة تدعى " الورد" بكسر الواو وسكون الراء يتلونها يوميا بصورة جماعية غالبا بعد صلوات العصر والمغرب والصبح وأحيانا حتى بعد صلاة الظهر، وهذه الظاهرة هي التي استوجبت تسمية شيوخ هذه الزوايا الخلواتية بالطرقيين، لأن لكل واحد منهم طريقة خاصة ذات تقاليد وأشكال وأذكار وأوراد معينة يفرضها على أتباعه من الفقراء والإخوان والمردين وعلى سبيل المثال الحضرة لدى العلويةوحلقة البندير والأمواس لدى العيساوية والعمارية.

وعندما تكون الزاوية ميسورة الحال من الناحية المادية وذلك بغنى شيخها أوبكثرة الأوقاف التي حبست والصدقات التي ترد عليها من الأنصار والأتباع، ترتب التلاميذ والطلبة لتحفيظهم القرآن الكريم

وتعليمهم العلوم الدينية واللغوية خاصة الفقه والحديث والتوحيد وقواعد اللغة ويقوم شيخ الزاوية نفسه بمهمة التعليم إن كان مثقفاوفي حالة العكس يوظف من يقوم بالمهمة بدله ويحمل نوابه ألقاب المقدم والوكيل والنقيب والرقيب والخليفة حسب اختلاف الجهات.

ب. والنوع الثاني غير خلواتي : لا يدعي شيوخها معرفة أسرارا غيبية دينية معينة ولكن يتخذون لأتباعهم "وردا" خاصا من الأذكار يتلونها وراء الصلوات ويتصدون لتعليم القرآن أساسا للأطفال وتلاوته وتعليم بعض العلوم الدينية واللغوية بأنفسهم إن كانوا مثقفين وبواسطة حفاظ القرآن الكريم وبعض المثقفين الآخرين من أنصارهم وأتباعهم ومن هنا يمكن اعتبار هذا الصنف من الزوايا بمثابة كتاتيب قرآنية.

وكثيرا ما يكون لهذه الزوايا بنوعيها خاصة الخلواتية، فروع كثيرة داخل البلد وخارجه فالتيجانية مثلا لها فروع في معظم بلدان القارة الإفريقية وفي مصر والحجاز وبعض البلدان الأوروبية وكذلك السنوسية والعلوية والرحمانية التي لها فروع في باريس وكارديف واليمن والحجاز والشمال الإفريقي وأعماق الصحراء.

ومما تجدر ملاحظته أن البعض من شيوخ هذه الزوايا وعددهم ليس بالقليل أميون ولكن نفوذهم وتأثيرهم كبير جدا على أتباعهم ومريديهم، وبما يفرضونه عليهم من أذكار وأوراد وتسابيح وتقاليد واستفادوا من المثقفين الذين ينضمون إلى صفوفهم في كتابة وتأليف كتب دينية في الزهد والتصوف وبعض أبواب الفقه بأسمائهم ومن أمثلة

ذلك الشيخ بن اعليوة صاحب الطريقة العلوية بمستغانم في النصف الأول من القرن العشرين والشيخ الحداد مقدم الطريقة الرحمانية بصدوق في النصف الثاني من القرن الماضي.

ومن ضمن هذه الزوايا بالجزائر :

1. الشاذلية 658هـ–1258م
2. العيساوية 936هـ–1523م– 1524م
3. الكرزازية 1016هـ–1608م
4. الشيخية 1026هـ– 1615م
5. الطيبية 1089هـ–1678م– 1679م
6. الحنصالية 1114هـ–1702م
7. القادرية 1125هـ–1713م
8. الزيانية (القندوسية) 1145هـ–1733م
9. التيجانية 1196هـ–1781م–1782م
10. الرحمانية 1208هـ–1793م–1794م
11. السنوسية 1250هـ–1835م

وكل زاوية من هذه الزوايا لها فروع كثيرة تحمل أسماء مختلفة حسب المناطق والمشايخ والمقدمين وقد أورد الضابط لويس رين للشاذلية وحدها إحدى وعشرين طريقة وزاوية فرعية لكل منها اسم خاص.

أهمية هذه الزوايا

لعبت الزوايا الدينية بمختلف أشكالها وأنواعها أدوارا كبيرة في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية وبل حتى السياسية بالجزائر وكل بلدان المغرب أغلبها ايجابي والبعض سلبي.

من الناحية الايجابية

1. إهتمت بتحفيظ القرآن ونشره بصورة مكثفة في الأجيال الاسلامية المتعاقبة وعممته بين مختلف الطبقات الاجتماعية وساعد ذلك على حمايته من النسيان والضياع والاندثار.

2. إحتضنت اللغة والثقافة العربية الاسلامية ونشرتهما بشكل واسع ومكثف وفتحت أبوابها لطلاب العلم والمعرفة وأنفقت عليهم بسخاء وكان ذلك شكلا من أشكال مقاومة الجهل والأمية ونشر العلم والمعرفة وعملا ضد سياسة التجهيل التي كانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية تتبعها ضد الأهالي الجزائريين.

3. عملت على نشر الإسلام في المواطن والأصقاع التي لم يصل إليها، خاصة الأقاليم الصحراوية النائية كما فعلت التيجانية والسنوسية.

4. عملت على إزالة الفوارق الاجتماعية بين الفئات الاجتماعية المختلفة، فقربت بين الأغنياء والفقراء والعلماء والأميين وشرفاء الأصل وغيرهم وصنتهم في بوتقة واحدة وألفت بينهم جميعا في إطار مفهوم الآية القرآنية الكريمة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم﴾[1] ومفهوم الأحاديث النبوية المختلفة مثل" المسلمون كأسنان المشط" و" لا فرق بين عربي ولا

1. الحجرات، 13.

أعجمي إلا بالتقوى" وهذا الجانب له أهمية خاصة في تاريخ الزوايا بالجزائر ومعظم البلاد الاسلامية.

5. لعبت دورا بارزا في إنهاء الخلافات والخصومات بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية وذلك بفضل مركز شيوخها ومقدميها ووكلائها فلعبت دور الحكم وقللت من المشاكل وتمتع المجتمع الجزائري بنوع من الاستقرار النفسي والخلقي وساعد ذلك على التفرغ لمقاومة السيطرة الأجنبية الاستعمارية.

كانت هذه الزوايا بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها بالعلم والتعليم والنسخ والنقل والتأليف والجمع، غير أن معظم ما بها من تراث تسرب إلى البلدان الأوروبية خلال فترة السيطرة الاستعمارية على الجزائر وبلدان المغرب الأخرى وتعرض جزء هام من هذا التراث إلى التلف والضياع خلال مرحلة المقاومة للزحف الاستعماري الأوروبي في القرنين19م و20م وخاصةفي حرب التحرير الأخيرة 1954م و1962م بالجزائر.

6. شاركت هذه الزوايا مشاركة فعالة في مقاومة نظم الحكم الطاغية والمستبدة سواء منها المحلية أو الاستعمارية فحاربت الدرقاوية الولاة الأتراك المستبدين في شرق الجزائر وغربها وحاربت الرحمانية والسنوسية الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتصدى زعماؤها للمقاومة طيلة القرن 19م، سواء وحدهم أو مع الزعماء السياسيين والعسكريين وكنموذج لذلك : الأمير

عبد القادر وزعماء أولاد سيدي الشيخ والحاج موسى الأغواطي والشيخ الحداد والشيخ بوعمامة.

7. بذلت هذه الزوايا جهودا كبيرة وكثيفة في مقاومة الاستعمار الفرنسي والتنصيروعملت على حماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر بواسطة نشر الدين واللغة والثقافة العربية ومختلف الوسائل والسبل والإمكانيات وفي كل الأوقات والظروف وكان ذلك خيرا وبركة على الجزائر وشعبها.

من الناحية السلبية

1. اتبعت هذه الزوايا أساليب عتيقة ومناهج متخلفة وتمسكت بتقاليد بالية لم تكن تتلاءم مع التطورات الحديثة التي صحبت النهضة الأوروبية الحديثة حتى ولو كانت لا تتعارض مع التقاليد العربية الإسلامية وكان هذا بمثابة تجرؤ إن لم نقل إنه عناد وتحدّ ومن هنا ساد التخلف الذهني والاجتماعي بين أتباعها الكثيرين إلا القليل منهم وعمهم الركود والتقوقع.

2. انتشرت الدروشة والخرافات والأباطيل والبدع الدينية بين أتباعها وشيوخها بسبب ضيق أفقهم الفكري وعجزهم عن فهم التطورات والحركات الإصلاحية التي ظهرت في بعض بلدان الشرق الإسلامية ولم تكن في المستوى المطلوب وبالطبع فإن عزل الجزائر على العالم العربي الإسلامي من طرف الاستعمار الفرنسي له دور في هذا التحجر.

3. احتدت الخلافات والخصومات بين بعض شيوخ هذه الزوايا لأغراض شخصية حول النفوذ والمكانة الاجتماعية وحول بعض القضايا الدينية الهامشية التافهة وكان ذلك سببا في قيام المشاحنات والحزازات بين الأتباع كذلك وفي بعض الأحيان كان للإدارة الاستعمارية دور بارز في خلق هذا الخلاف وإذكائه من أجل إشغال الأهالي الجزائريين عن فكرة الثورة والتحرير.

4. استسلم في القرن العشرين معظم زعماء وشيوخ الزوايا للإدارة الاستعمارية بعد أن أصابهم الإعياء والوهن وتعاونوا معها وخدموها لأسباب ودوافع متنوعة البعض للتقية والبعض للحصول على المال أو الجاه أو السلطة والنفوذ.

المعمرات

عبارة عن مؤسسات ثقافية لها شبه بالكتاتيب القرآنية أحيانا وبالزوايا غير الخلواتية أحيانا أخرى وتنتشر في أرياف الجزائر وقراءها الجبلية خاصة في منطقة القبائل بالشرق الجزائري ويحضر إليها التلاميذ والطلبة من كل جهات القريبة والبعيدة وأحيانا حتى من خارج البلاد نفسها وينقطعون فيها لحفظ القرآن الكريم وتجويده وترتيله بصفة أساسية ولتلقي بعض العلوم والمعارف الأخرى الدينية واللغوية بالتبعية. ويقومون بتسيير هذه المعمرات تسييرا ذاتيا فيما يخص النظافة والصيانة وطهي الطعام وجلب المؤن الغذائية والمياه ورعي حيوانات المؤسسة ويتداولون ذلك بصفة منتظمة وديمقراطية وفق أعراف متداولة ومتعارف عليها من زمن بعيد.

وينقسم الطلبة والتلاميذ في هذه المعمرات إلى عدة طبقات حسب السن وحسب القدم والثقافة أهمها ثلاثة :

1. طبقة القدادشة (جمع قداش) أو التلاميذ الصغار سنا، الذين يحضرون لحفظ القرآن الكريم فقط في بداية أمرهم.

2. طبقة الطلبة الذين هم فوق القدادشة ثقافة قدما ويقومون بحفظ القرآن وتعلم بعض العلوم الدينية واللغوية وتوكل إليه مهمة الإشراف على القدادشة في تحفيظ القرآن الكريم وعلاج المشاكل اليومية المختلفة كالتغذية والمراجعة والتنظيف والنوم والاستيقاظ وغيرها.

3. طبقة المقدمين والوكلاء والشيوخ الكبار وهي أعلى طبقة تتمتع بمزايا التوجيه للمؤسسة ماديا وفكريا ولها كامل الصلاحيات في علاج المشاكل وتعفى من ممارسة الأعمال اليومية المرهقة والمتعبة وغير اللائقة بمقامهم.

يرأس المعمرة شيخ مسن يحمل لقب المقدم أو الوكيل ويساعده عدد كبير من الطلبة والمقدمين الثانويين وتؤدى الصلاة فيها بصورة جماعية كما يتلى القرآن كذلك بصفة جماعية بعد صلوات العصر والمغرب والصبح ويدعونه الحزب الراتب أي المرتب والمنتظم بصفة دائمة.

وقد لعبت هذه المعمرات دورا بارزا كذلك في تعليم القرآن وتحفيظه ونشره وتعميمه بين الأجيال الإسلامية وفي تعليم بعض العلوم الدينية واللغوية ولو بصورة ثانوية في بعض الأحيان واحتضنت الفقراء وآوت المساكين وقدمت لهم العون والمساعدات المجانية الممكنة ماديا وثقافيا

ساعدهم على شق طريق الحياة إلى المستقبل فتخرج منها أجيال من المثقفين ارتبط البعض منهم بحركة النهضة الفكرية الإصلاحية في القرنين الماضي والحالي وشاركوا في نشر العلم والثقافة بهذه البلاد وقاوموا الجهل والخمول والسيطرة الاستعمارية بأشكال مختلفة ومن أمثلتهم الشيخ البشير الإبراهيمي.

ومن ضمن هذه المعمرات في منطقة القبائل :

1. معمرة سيدي علي بن يحي في بني كوفي
2. معمرة سيدي علي اوموسي بالمعاتقة
3. معمرة سيدي عمر الشريف على ساحل دلس
4. معمرة سيدي عمر الحاج علي في ساحل دلس كذلك
5. معمرة سيدي منصورة بالعزازقة
6. معمرة سيدي احمد بن إدريس بعرش ايلولن بدائرة العزازقة
7. معمرة سيدي عبد الرحمن اليلولي
8. معمرة الشرفاء بهلول قرب العزازقة
9. معمرة سيدي يحي العيدلي ببني عيدل
10. معمرة سيدي محمد بن عبد الرحمن بوقبرين
11. معمرة سيدي مخلوف بمزيتة

12. معمرة سيدي احمد آو يحي بأمالو في بني عيدل
13. معمرة فريحة ببني عيدل
14. معمرة شلاطة بيلولة اومالوا لابن علي الشريف
15. معمرة العراس للشيخ محمد امزيان بن الموهوب
16. معمرة زرعة بأولاد حالة
17. معمرة تفرق بجبال تفرق
18. معمرة الجعافرة بني عيدل

المصادر المالية لهذه المؤسسات : تعتمد هذه المؤسسات الدينية الاقتصادية على مصدرين هامين ورئيسيين : المصدر الأول الإعانات التي يقدمها لها المحسنون من الأثرياء في شكل نقود وبضائع ومواد غذائية (حبوب وزيوت) وحيوانات وأدوات وألبسة ومفروشات وغيرها.

المصدر الثاني : أموال الحبس والأوقاف الإسلامية التي يوقفها عليها الأشخاص والهيئات الخيرية والجماعات وبعض الولاة والأمراء وتتنوع إلى أراضي زراعية وحقول للأشجار المثمرة والغلال كالزيوت والتين والخروب والحيوانات الحلوبة والمحلات التجارية والحمامات المعدنية بالأرياف وغير المعدنية في المدن تدر عليها الأموال اللازمة للصرف على احتياجاتها المختلفة كالتغذية والإنارة والتنظيف والتبييض والتأثيث والصيانة والإنفاق على طلبة العلم والعلماء والفقراء وإجراء الإصلاحات المطلوبة للمؤسسة.

وتنفرد الزوايا بمصدر ثالث يتمثل في أموال الزيارات les offrandes والوعادي جمع وعدة، التي يقدمها إليها زوارها من الإخوان والأتباع والمريدين والمحبين على شكل نقود وبضائع ومواد غذائية متنوعة وألبسة تختلف كمياتها ومقاديرها وأنواعها حسب اختلاف أهمية الزائرين ومصادر أموالهم وثرواتهم ومدى حبهم وتقديرهم للزاوية وشيخها.

وكثيرا ما تؤلف هذه المعمرات والزوايا وفودا من طلبتها وتلاميذها والمشرفين عليها ليخرجوا إلى الأقاليم البعيدة لجمع أموال الصدقات والزيارات والزكاة في مواسم معينة، مثل موسم جني زيت الزيتون في الشتاء وموسم جني الحبوب في الصيف وموسم الحيوانات ولحم القديد والزبدة في الربيع وموسم الزكاة في عاشوراء محرم.وبفضل هذه الأموال والصدقات المتنوعة تتولى هذه المؤسسات، خاصة الزوايا والمعمرات الإنفاق على الطلبة وحفاظ القرآن الكريم والقائمين على خدمتها من الوكلاء والمقدمين والمؤذنين والأئمة والمشايخ وإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل.

ويمكن إيراد نموذج لأملاك هذه الزوايا والمعمرات بزاوية الحداد في صدوق وزاوية كرزاز في الجنوب الوهراني :

أملاك زاوية الحداد بصدوق : كانت زاوية الحداد تنفق على ما بين 200 و500 طالب بصفة دائمة، ويعد زوارها بالآلف كل سنة، وتبلغ مساحة أملاكها العقارية 502 هكتار و52 آر و5 صانتيآر، وتحتوي على الأملاك التالية :

52 ضيعة فلاحية للحبوب والغلال البعليةخاصة التين والزيتون

6 بساتين مسقية للخضر والفواكه وللغلال

14528 شجرة مثمرة، أغلبها زيتون، والباقي تين وبرتقال وتفاح واجاص ورمان وبرقوق

06 أحواش تحتوي على 41 غرفة

15 دكانا ومخزنا للتجارة

03 رحوات

13 إسطبلات

معصرة زيتون واحدة

1 مسجد

أملاك زاوية كرزاز

2270 رأس غنم

0393 معزة

340 جملا

73 حمارا

19 حصانا

396 عبدا زنجيا ذكورا وإناثا

810 نخلة

8 بنادق

موقف الاستعمار الفرنسي من هذه المؤسسات الدينية : تعرضت المؤسسات الدينية بالجزائر لمحاربة شديدة طيلة الفترة الاستعماريةبمختلف الوسائل والأساليب والأشكال، لأنها كانت تمثل عائقا صلبا وشديدا ضد السيطرة الاستعمارية وسياسة الفرنسة والتنصير والتجهيل.

فالمساجد هدم الكثير منهاوحول الباقي إلى الكنائسس وثكنات واصطبلات ومستوصفات ومراكز إدارية، وأغلق البعض منها، فمدينة الجزائر مثلا كان بها 166 مسجدا وزاوية غداة الاحتلال الفرنسي لها عام 1830م، ولم يبق منها إلا بضعة مساجد لا تصل حتى إلى عشرة. وحورب الأئمة وشيوخ الزوايا ووضع حد لنشاطهم الديني الثقافي وفرضت عليهم وعلى أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة ونفي الكثير منهم وشردوا إلى مناطق نائية داخل البلاد وخارجه، وأرغم البعض على الاشتغال بالجوسسة لصالح الشرطة الفرنسية وتم إغلاق الكثير من الزوايا وتهديم البعض منها خاصة التي شاركت في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

والكتاتيب القرآنية والمعمرات، أغلق الكثير منها بدعوى عدم وجود رخصة لها من إدارات الشرطة واستهدف رجالها للملاحقات القضائية والمتابعات من طرف الشرطة والضباط العسكريين ومصالح المخابرات السرية، وشردوا وأبعدوا.

وصادرت الإدارة الاستعمارية أملاك الأوقاف والحبس الإسلامية التي تمون هذه المؤسسات خاصة الأراضي الزارعية والمتاجروحرمت تدريس أبواب الجهاد والفقه الإسلامي ومنعت تدريس تاريخ الجزائر الوطني

وجغرافيتها وراقبت الكتب التي تستعملها وشددت في منع استعمال السبورة والطباشيرحتى يبقى التعليم تقليديا متخلفا وألزمت الكثير من رجال هذه المؤسسات على التقدم إلى إدارات الشرطة بصفة دورية لبحثهم والتعرف على نشاطهم وزوارهم ومنعت الكثير منهم من أداء واجبهم الثقافي الاجتماعي وسجنتهم ونفتهم إلى جهات كثيرة داخل البلد وخارجه.

ومع ذلك فإن هذه المؤسسات قاومت وصمدت وواصلت رسالتها بجدونشاط بل وبعناد في كثير من الأحيان بفضل تأييد الشعب لها وانفاقه بسخاء على نشاطات رجالها وطلبتها وتلاميذها فأكثروا من بناء المساجد والمدارس والكتاتيب وكثر ظهور الزوايا الجديدة وبالغ الشعب في إكرام رجالها والإنفاق على مشاريعهم الدينية والثقافية والاجتماعيةكأسلوب من أساليب مقاومة السيطرة الاستعمارية ولعل أبرز دور لهذه المؤسسات الدينية بصورة عامة هو حمايتها للغة والثقافة العربية ومقاومتها الشديدة لسياسة الفرنسة والتنصير وتمسكها الشديد بحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر وهو مكسب وطني هائل عاد بالنفع على المقاومة الوطنية خلال معارك التحرير المختلفة، وخاصة ثورة 1954م-1962م.

حالة هذه المؤسسات في عهد الاستقلال الوطني : بعد استعادة الجزائر لاستقلالها الوطني عام 1962م استعاد دوره ومركزه بفضل رعاية الدولة له وإقبال المواطنين على دعمه بالبناء والتشييد والإصلاح وذلك في إطار إعادة الوجه العربي الإسلامي إلى هذه البلاد كما كان سابقا.

وتحاول الإطارات الدينية أن تشرك المسجد في عمليات محو الأمية ورفع الوعي الديني والاجتماعي والسياسي للسكان ولكن الذي يعوق رسالة المسجد حاليا هو ضعف الإطارات الدينية من ناحية التكوين الثقافي وتحاول وزارة الشؤون الدينية أن تواجه هذا الضعف بالاهتمام بالتكوين عن طريق الإكثار من معاهد التكوين والجامعات الاسلامية والملتقيات الفكرية الاسلامية وماتزال النتائج المطلوبة والمرجوة بعيدة.

أما باقي المؤسسات الأخرى فقد تعرضت لهزات كثيرة وتواجه حاليا ضعفا وانهيارا في مركزها وسمعتها وأنشطتها وذلك لثلاثة أسباب رئيسية

الأول : اتجاه الأجيال الصاعدة بصفة جماعية إلى التعليم الرسمي الذي يفتح أمامهم سبل المستقبل ويساعدهم على الرقي والتطور الاجتماعي والسياسي.

الثاني : تعثر الإصلاحات التي أدخلت على أوضاع الإطارات الدينية ماديا وثقافيا وضيق أفق العمل والتطور في هذا الميدان والتباطؤ في إنجاز مشاريع الجامعات والمعاهد الاسلامية التي تسمح بتكوين إطارات دينة كفأة وواعية بمسؤوليتها ووجباتها وضعف البرامج التربوية التي كانت تطبق في المعاهد الدينية السابقة التي أنجزت في عقدي الستينات والسبعينات وذلك من الأسباب التي نفرت الشباب من الالتحاق بهذه المؤسسات والارتباط بها فقل الإقبال عل الزوايا والكتاتيب القرآنية والمعمرات واضطر الكثير منها إلى غلق أبوابها والذي بقى أصبح ملجأ لمن فاتهم الركب وسدت في وجوههم أبواب مؤسسات التعليم الرسمية بسبب كبر السن أو عوائق أخرى.

الثالث : يخص الزوايا وحدها، وهو تمسكها بالطرق والثقافة التقليدية المتخلفة واحتضانها لمظاهر الدروشة والركود التي تعوق الفكر والذهن عن الاستيقاظ والتطور وتعاون البعض منها مع الإدارة الاستعمارية في العهد الاستعماري فانحطت سمعتها وتزعزع مركزها الديني والاجتماعي، وصارت الجماهير الشعبية تنظر إليها نظرة ازدراء واستخفاف ولربما احتقار، فخبا نشاطها وتوقف وأصبحت تتعرض بصفة تدريجية للموت البطيء حتى لم يبق منها اليوم سوى هياكلها وأسمائها واتضح بعد الاستقلال كذلك بأن المعمرات تجاوزها الزمن في أسلوب الحياة والتعليم والبرامج ومحتوياتها وجاء قرار تأميم المدارس الخاصة ليضع حدا نهائيا لنشاطاتها المختلفة التربوية والاجتماعية، والحقيقة أن القضاء على النشاط الثقافي للزوايا والمعمرات والكتاتيب القرآنية كانت له انعكاسات وتأثيرات سلبية وأصبح الجميع يشعر بحدة المشكل خاصة وزارة الشؤون الدينية وإطارها.

ذلك انه لوحظ عدم الإقبال على حفظ القرآن الكريم والعلوم الدينية ونشأ فراغ ديني واسع شعرت الإطارات الدينية بخطورته خاصة بعد أن لوحظ تزايد الآفات والانحرافات الاجتماعية التي لم يكن للشعب الجزائري عهد بها قبل ثورة نوفمبر التحريرية الأخيرة. إن المؤسسات الدينية الأنفة الذكر رغم عيوبها ومشاكلها السلبية بالنسبة للوقت الحاضر لها دور تاريخي هام في السابق وبدلا من إهمالها وتشجيع القضاء عليها، ينبغي دعمها بإدخال إصلاحات جذرية على أساليب الحياة فيها والبرامج التعليمية ومحتوياتها وبالدعم المادي لها حتى تشارك في تطوير البلاد وتنوير الأجيال.

وقد أذنت وزارة الشؤون الدينية عام 1979م بإحياء وتجديد الكتاتيب القرآنية ورعايتها وتقديم العون لأصحابهاحتى يؤدوا دورهم المطلوب كما أذنت بالسماح بإنشاء الجمعيات الدينية لتشارك هي الأخرى في المعركة الثقافية والاجتماعية المؤمل أن يسمح للكثير من المعمرات والزوايا بتجديد نشاطها الثقافي والاجتماعي في إطار اختيارات البلاد بقيت هناك ملاحظة أخيرة ينبغي إلفات النظر إليها وهي ضرورة إعادة النظر في كيفية معالجة الشؤون والقضايا الدينية الاسلامية وذلك أن كثيرا من الدراسات تاهت في جوانب هامشية خاصة الروحية منها، ولو أنها قضايا لا يمكن إنكارها. حقيقة كان هناك اهتمام لتعريف المسيحيين بكل جوانب الفكر والقضايا الاسلامية ولكن التركيز على ما يمكن تسميته بالصورة المشوهة أساء للعلاقة بين المجتمعين الإسلامي والمسيحي وعمق الهوة بينهما.

وبكل تأكيد فإن الكثيرين من الباحثين المستشرقين حاولوا أن يكونوا نزهاء و لم يقصدوا إبراز مثل هذه الصور المشوهة ولكن بحوثهم انتهت إلى هذه النتيجة إما بسبب التسرع في البحث وإصدار الأحكام أو الاعتماد على مصادر غير نزيهة أو عدم الاستيعاب للمعارف الاسلامية بالقدر الكافي.

ولعل من أسباب هذا الاتجاه لبعض الدراسات الاستشراقية للقضايا الاسلامية، هو انجازها في الفترة التي كانت فيها المجتمعات الاسلامية متخلفة وراكدة وتصورها للقضايا من ذلك الواقع المتخلف وليس من حقيقة الإسلام والسياسة ويمكن أن نضيف إلى هذا الفترة الاستعمارية التي لها دخل في ذلك التصور الخاطئ ولكن زوالها يستوجب إعادة النظر فيما أنجز خلالها على غير حقيقته في هذا الميدان.

بيبليوغرافية مصادر البحث

بالعربية

بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة فارس نبيه أمين والبعلبيكي منير، دار العلم للملايين بيروت 1974م، ص. 901.

يحي بوعزيز : أ. ثورة محمد المقراني والشيخ ابن الحداد : مجلة الأصالة، عدد 2 الجزائر ماي 1971م، ص. 22-29.

ب. الحقيقة عن دور زاوية صدوق والاخوان الرحمانيين في ثورة 1879م الأصالة عدد15/14 الجزائر، ماي جوان، جويلية 1973م، ص. 161-172.

ت. ثورة 1871م ودور عائلتي المقراني والحداد الجزائر 1978م، ص. 471 الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف الجزائر مطبعة فونتالة 1906م، 2 أج، 207 و250.

– ابن زكري محمد السعيد بن احمد : أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا في بلاد القبائل، الجزائر مطبعة فونتالة 1913هـ، 1321م، ص. 127.

– ستودار لوثروب، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة، نويهض عجاج وتعليق أرسلان شكيب، بيروت 1971 م، جزآن 2، م. 2، ص. 400.

– الغبريني أبو العباس أحمد بن عبد الله : عنوان الدارية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق ابن ابي شنب محمد، الجزائر مطبعة الثعالبية 1328هـ، 1910م، ص. 8، و226.

ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن احمد : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق وتعليق ابن أبي شنب محمد الجزائر المطبعة الثعالبية 1326هـ/1908م، ص. 65 و315.

محمد الأمير : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، 2 جزآن، ط. 1، الاسكندرية 1903، ص. 313–314.

الورتلاني الحسن بن محمد : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة برحلة الورتلانية، تحقيق ابن أبي شنب محمد، الجزائر مطبعة فونتالة، 1908م 1326هـ، ص 819.

دور المحفوظات :

– أرشيف ولاية وهران، يوجد به ملف خاص عن الزوايا.

– أرشيف ما وراء البحر بجامعة ايكس آن بروفنس A.O.M به مجموعة من الملفات أهمها :

- 16 H1 : Confrérie

16 H2 Confrérie des Tidjaniyas

- 16H2^2 Confrérie des Tidjaniyas

- 16 H3 : Autres confréries

- 8x222 : Notes sur les confréries de l'arrondissement de Batna.